

المجاز في الفكر العربي تطور أم انزياح دلالي؟
دراسة في التأسيس والتنظير

Metaphor in Arab Thought: Evolution or Semantic Shift?

A Study of Foundations and Theorization



د. شيخ أعمار الهوارية *

المدرسة العليا للأساتذة بوهرا 1، -الجزائر-

cheikhamer6@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/06/26 تاريخ القبول: 2025/08/04

ملخص:

قضية تطور ألفاظ اللغة وما تعلق بذلك قضية شغلت بال العلماء العرب والغربيين منذ زمن بعيد، فاهتموا بأسباب ذلك وبالغوا في التعرض لها؛ دراستها وتحليلها وعرض مظاهرها وتوصيفها، فحدّدوا مظاهرها وصوّرَها وأشكالها، وتأثرت الدلالة أثناء تطورها بمجموعة من المؤثرات منها؛ التجارب، الظروف، والسياقات الاجتماعية، والتاريخية، والنفسيّة المحيطة بنا. والتحول الدلالي معناه تحول استعمال العلامات اللغوية من فضاء دلالي إلى آخر، وهذا ما يدخل في باب المجاز، وسنحاول في هذا البحث التعرض لكل هذه القضايا إضافة إلى قضيتنا الرئيسة وهي محاولة اثبات هل المجاز في الفكر العربي تطور دلالي أم انزياح متعلق بدلالة؟

الكلمات المفتاحية: الدلالة؛ المجاز؛ الحقيقة؛ التطور الدلالي، الانزياح.

Abstract:

The issue of the development of the words of the language and what is related to that is an issue that occupied the minds of Arab and Western scholars for a long time, so they took care of the reasons for this and exaggerated the exposure to it, study, presentation, analysis and description, so they defined its manifestations, images and forms, and the significance during its development caused by a set of effects from them; Experiments, conditions, social, historical, and psychological contexts surrounding us. The semantic development means the transformation of the use of linguistic signs from one semantic space to another, and this is what falls in the door of metaphor, and we will try in this research to be exposed to all these issues in addition to our main cause, which is an attempt to prove whether the metaphor in Arab thought is a semantic development or a semantic display?

Key words: significance; The metaphor; the truth; Semantic development, displacement.

1-تمهيد:

لقد عرفت الدراسات اللغوية في التراث العربي تخصصات أو فروع عديدة ومتنوعة، شملت هذه التخصصات البلاغة العربية التي اعتبرت من أرقى البلاغات التي اهتم بها الدارسون على مر الأجيال والعصور ولدى كل الأمم تقريبا. والمجاز هو فرع مهم جدا في الدرس البلاغي إن لم نقل إنه أهم مباحثها، ولم يلق عناية فائقة من علماء اللغة فقط بل تعداه إلى المندغلين بالفقه والتفسير (بن ستالة، 2022، ص54-74). فكانت هناك دراسات تراتية حوله أمثال الجاحظ (ت.255هـ) في كتاب "البيان والتبيين" وكان من أوائل من تناول البلاغة والمجاز وأهميتها في اللغة، عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة" والذي قدم رؤية دقيقة للمجاز بوصفه أداة أساسية في الإعجاز البلاغي والتعبير البياني كما توسع في تحليله وتناول أسس فهمه باعتباره نقلة في المعنى تتطلب مشاركة ذهنية من المتلقي، كذلك كتاب "المجاز في اللغة والقرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت.210هـ)، وكان من الأوائل الذين أَلَّفوا في باب المجاز بشكل مستقل، وركزوا على مجازات القرآن الكريم، ومصنف "البرهان في علوم القرآن" للزركشي (ت.794هـ)، الذي اشتمل على فصل عن المجاز القرآني وطرائق تفسيره.

أما الدراسات الحديثة فهي امتداد لما سبقها من الدراسات منها على سبيل المثال: "البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها" لحامد حنفي داود، الذي تناول المجاز وربطه بالسلامة الأسلوبية في التعبير العربي، وكتاب "في البلاغة العربية: علم البيان" لتمام حسان الذي تناوله ضمن منظومة لغوية لسانية وربط بين النحو والمعنى والسياق، وكتاب "المجاز في اللغة العربية: دراسة لغوية بلاغية تحليلية" عبد السلام المسدي، أين دمج بين النظرية اللسانية والمفهوم البلاغي التقليدي للمجاز وغيرها من الدراسات.

إن المجاز من أبرز آيات التعبير في لغة الضاد، وقد اختلفت المقاربات في تفسير المجاز بين كونه تطورا دلاليا طبيعيا خضع له اللفظ عبر الاستعمال والتداول، وبين اعتباره انزياحا متعمدا عن المعنى الأصلي يهدف التوسع أو الإيحاء، ويتصل هذا الجدل بسؤال أعمق حول طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر ودور السياق في توجيه الدلالة، من هنا تنبثق الإشكالية الرئيسية في هذه الورقة البحثية وهي: هل يمثل المجاز تحولا دلاليا قاعديا يسير وفق قوانين تطور اللغة أم هو انزياح مقصود يحدث في لحظة الإبداع؟

2-التطور اللغوي/ الدلالي:

اهتم العلماء العرب وغير العرب بمسألة التطور في ألفاظ اللغة وقضاياها منذ القديم حتى العصر الحديث، فتعرضوا بالدراسة والتحليل والوصف لأسباب التغير الدلالي ولما ظهره ولصوره وكذا لأشكاله، وقد خلص معظمهم إلى أن الدلالة في نموها وتطورها تصنع تحت تأثير مجموعة من المؤثرات التي تختلف باختلاف الأشخاص وتبلور عن طريق التجارب والظروف والسياقات الاجتماعية والتاريخية والنفسية المحيطة بها.

تأسيسا على ما سبق قد يحدث خلافا حادا وفروقا بين الناس في اصطناع دلالات ومعاني الكلمات والأشياء لذا فهم يحتاجون لبعضهم البعض فكان لابد من التنازل عن هذه الفروق والاختلافات

التي تكون في دلالات الألفاظ والقضاء على ذلك باصطناع معاجم لغوية مشتركة فيما بينهم تجمع أو توحد دلالة الملفوظات في اللغة دون الحاجة إلى الاهتمام بظاهر القوة أو الضعف أو الوضوح أو الإبهام فيها، باعتبار أن من صنع ذلك أفراد المجتمع باختلاف مستوياتهم الفكرية تجاربهم الحياتية؛ وهذا ما يعرف بالدلالة المركزية.

تختلف الدلالة الهامشية من فرد إلى آخر حسب مكتسباته اللغوية والثقافية والاجتماعية وحسب تجاربه الشخصية وتركيبته النفسية، فعلى سبيل المثال كلمة (مسدس) إذا سمعها أشخاص أدركوا في الحال دلالاته المركزية المتفق عليها، ولكن هذا لا يمنع من إثارة دلالات أخرى هامشية في ذهن كل واحد منهم، فقد يتذكر الأول بمجرد سماع هذه الكلمة طفولته وصباه حين كانت لعبته المفضلة على شكل مسدس يقذف قطرات من الماء، يلعب بها بمرح وسرور، وشخص ثان يتألم عند سماعها حيث يتذكر حادثاً أليماً مفزعا شهد فيه مقتل صديق أو قريب له على يد مجرم أصابه برصاصة في صدره، وقد يكون هناك شخص ثالث يعمل ضابط شرطة ترسم هذه اللفظة في ذهنه الأمان والحرية لأنها وسيلة دفاع عن النفس وأداة تحارب الجريمة (أنيس، 1972، ص.107)، لذلك نجد الاختلافات في الدلالات الهامشية أو الثانوية تبعا لاختلاف تجارب الأفراد وتنوعها حتى وإن كانت تجمعهم بيئة واحدة باعتبارها دلالة شخصية أو ذاتية.

وكثيراً ما تتعرض هذه الدلالات للزوال مع تعاقب السنين، فبعدما كانت ألفاظا تحمل معاني مألوفة بين مستعمليها في زمان ومكان معينين، ستحتاج إلى الشرح والتفسير في زمان ومكان آخرين، وهذه الظاهرة الدلالي للغة شائع ومنتشرة في كل اللغات العالمية باختلافها، وقد يتحول إلى أن يصبح ظاهرة طبيعية تملها أو تفرضها معطيات وعوامل تتسبب في حتمية تطور معاني الملفوظات وتغير دلالاتها، ربما يتقاسم ذلك ما كان عمداً أو ما كان لا شعورياً.

والتحول الدلالي للملفوظات قضية حتمية وحقيقة يقرها علماء اللغة المعاصرين، كذلك نجد لديهم تعدد المصطلحات الدالة على طرق التغير الدلالي، فبعضهم يصفها بمصطلح أشكال التغير الدلالي، وبعضهم الآخر يصفها بمظاهر التغير الدلالي، وصنف آخر يسميها قوانين التغير الدلالي، وهذا التغير

يكون في ثلاثة أشكال:

- توسيع المعنى.
- تضيق المعنى.
- انتقال المعنى (عوض، 1999م، ص.72).

أ- الاستعمال:

وبالتأكيد فإن الاستعمال والحاجة هما من الأسباب الرئيسة ومن العوامل المهمة في حركية دلالة الألفاظ وتطورها وتغيرها. ففي مجال الاستعمال مثلا فإن أفراد المجتمع يتعاملون فيما بينهم عموما بالألفاظ اللغوية وهي تختلف عن باقي طرق التواصل غير اللغوية كالإشارات أو الرموز أو الحركات لأنها الأكثر دقة وشمولية ودقة في التعبير والأبعد والأعمق دلالة.

كما لا يخفى علينا فإن الكلام يكون عادة "مُعقدُ الروابط بين الأفراد ووسيلة مد الجسور بين الجماعات والباعث على السلم والحرب معا، ولذلك احترف الإنسان منذ أن أدرك أهمية الكلمة صنوفا في القول الجميل جعلها وسيلة في التعامل ومعتمدة في إنجاز أراضه ونيل حاجاته" (عشراتي، 2003، ص.25). ولعلّ الألفاظ ثم العبارات -وهي المكون الرئيس للغة- تعد من أهم أشكال التواصل والاتصال، ولما كان هذين الفرعين أكثر فروع الاتصال اللغوي تداولاً فإن إبراهيم أنيس يذهب إلى الاعتقاد بأن الألفاظ لم تخلق لتحبس في الخزائن أو بين دفات الكتب والقواميس؛ بل لتستعمل وتتبادل عن طريق الأذهان والنفوس المتباعدة من جيل لآخر، ومن زمن لآخر، وهذا ضمن تكييفها وتشكلها لما يوافق ذلك و "مع اشتراك الناس في ناحيتها المركزية نراهم يختلفون في حدودها الهامشية وفي ظلالها، وما يكتنفها من ظروف وملابسات تتغير كل يوم، وتتغير بتنوع التجارب والأحداث، فإذا ورثتها الأجيال الناشئة واتخذتها أيضا للتعامل والتبادل لم ترثها على حالها الأولى، بل ترثها مع بعض الانحراف في الدلالة، ثم يتضخم ذلك الانحراف على توالي الأجيال" (أنيس، 1972، ص.135).

ويمكننا أن نحصر عناصر هذا الانحراف فيما يلي:

- سوء الفهم: وهو من الأسباب الغريبة لتطور الدلالة، فمثلا عندما يسمع المتلقي كلمة لأول مرة ويسيء فهمها أو ربما أوحى له بدلالة غريبة أو بدلالة غير تلك التي يقصدها المتكلم، ولا تتاح له فرصة لتصحيحها، فستستقر تلك الدلالة الخاطئة المرتبطة بتلك اللفظة، وقد ينقلها لغيره من أفراد مجتمعه فيتداولونها فتأخذ هذه اللفظة مكانها في لغة ذلك المجتمع بدلالته الجديدة وهذا باب من أبواب التطور الدلالي.

- قدم الألفاظ: وهو كذلك من مسببات هذا الأمر، فقدم اللفظة يؤدي بها إلى معنى جديد غير معناها القديم مثل كلمة قماش التي ننسبها إلى الحرير والصوف فنقول أقمشة حريرية أو صوفية بينما جاءت هذه الكلمة في الأصل تعني ما يلي: "القَمَشُ: الرِّدْيُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... القَمَشُ جمعُ القُمَاشِ وَهُوَ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ فُتَاتِ الْأَشْيَاءِ حَتَّى يُقَالَ لِرُذَالَةِ النَّاسِ... وَقُمَاشُ الْبَيْتِ: متاعه" (ابن منظور، 1414هـ، ص.338).

- الابتذال: فانزواء بعض الألفاظ التي يعبر بها قد يعود إلى تغير في الظروف السياسية، ومثال ذلك إلغاء الرتب في مصر أدى إلى اختفاء كلمات مثل: الباشا وبيك وأفندي، ويترتب عن هذا الابتذال انحطاط الدلالة واختفاء الكلمات ثم اندثارها.

ب- الحاجة:

تدفع حاجة الإنسان اللغوية أو التواصلية إلى تجديد الألفاظ أو اكسابها ما ليس فيها من مسميات أو دلالات، ويكون ذلك على أيدي أصحاب المهارة والمتخصصين في مجال اللغات والكلام ومن ذلك المنتسبين للمجامع اللغوية والهيئات العلمية خاصة الأكاديمية، ومن أهم دوافعها أو مسبباتها نجد التطور في العديد من مجالات الحياة كالتقدم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والعلمية وغيرها، وكذلك وكذا المواصلات والصناعات والانفجار التكنولوجي الذي يشهده العالم حالياً جعل الإنسان أو اضطره إلى تطوير اللغة، سواء بإحياء الألفاظ المندثرة وإعطاء دلالة جديدة لها أو اللجوء إلى استعارة ألفاظ أجنبية.

تشير الدراسات المعاصرة إلى أن هذا الصنف من التطور الدلالي لا يتم دون مسببات ودوافع، بل يكون من أجل أغراض أو مظاهر يمكن أن نختصرها فيما يلي:

أ- تضيق المعنى وتخصيص الدلالة:

كلفظة (الطهارة) مثلا التي تعني عادة التطهر بالماء، كما تعني التنزه والكف عن الآثام، ففي اللهجة الجزائرية أصبحت تعني الختان، وكلمة (مأتم) كان العرب قديما يطلقونها على اجتماع النساء سواء في خير أو في شر، بينما تطلق الآن على الاجتماع في مصيبة الموت ليس إلا.

ب- توسيع المعنى وتعميم الدلالة:

وفي هذه الجزئية تدل اللفظة على أكثر من معنى كلفظة (البأس) التي كان يقتصر معناها على حقل الحرب ثم تحولت واكتسبت دلالة جديدة حتى أصبحت تُطلق على كل شدة. وكلمة الورد تطلق على كل زهرة.

ج- تحول الدلالة أو تغير نطاق الاستعمال:

وهو ما يصطلح عليه المجاز، وهو نوع من التحول في الدلالة كأن يكنى عن (الكرم) بكثرة الرماد وعن العُقُول بالأحلام.

د- ضعف الدلالة:

نجد في الكثير من الأحيان أن بعض الألفاظ تبدأ حياتها بأن تعبر في قوة عن معنى من المعاني أو قضية من القضايا ومع مرور الزمن تشيع ويكثر تداولها حتى تستخدم في مجال أضعف، ومن أمثلة ذلك لفظة (القتل والقتال) أصبح يوسم بها الشجار وفي المنافسات الرياضية القتالية حتى مع ضعف شأنهما.

ج- ارتقاء شأن الدلالة:

ومن ذلك كلمتي (السلطان والملك)، فقديما كان كل منهما يطلق على صاحب الولاية، والحكم مهما صغر شأنه حتى القرن السابع (7) الهجري فأصبحتا كل من اللفظتين لقبا عظيما من ألقاب الحكام.

د- تحول الدلالة بالمعاني المتضادة:

وهو أن تستخدم الكلمة بمعناها وبمعنى ضدها في آن واحد، ومن ذلك إطلاقنا لكلمة (مولى) على السيد والعبد في حين كانت تطلق قديما على العبيد بعد عتقهم.

3- المجاز تطور أو انزياح دلالي؟

إذا أعدنا النظر في مفهوم التطور الدلالي ألفيناه يعني تحول العلامات اللغوية من فضاء دلالي معين إلى فضاء دلالي آخر مغاير، وهذا تماما ما يتوافق ومبحث المجاز، لأن الاعتقاد أو القول بالمجاز يفرض علينا بالضرورة الاعتراف بنوع من التطورية التاريخية في الدلالات اللغوية.

يرى إبراهيم أنيس أن "اللفظ قد يشيع استعماله في جيل من الأجيال للدلالة على أمر معين، وكلما ذكر اللفظ خطرت نفس الدلالة في الأذهان دون غرابة أو دهشة، وهو من أجل هذا سمي بالحقيقة، فإذا انحرف به الاستعمال في مجال آخر، فأنثارت في الدهن غرابة أو طرافة قيل حينئذ إنه من المجاز"(أنيس، 1972، ص.130).

والمجاز في الأصل هو انحراف أو خروج النسج اللغوية عما وضعت له من معانٍ وما ألفه المتخاطبون بالّغة، وفي المدونة النقدية الغربية المعاصرة وسموه بالانزياح ويقصدون به العدول عن الدلالة الأصلية للألفاظ والعبارات إلى دلالة فرعية جديدة مكتسبة، وقد نجد لهذا المصطلح خاصة لدى الدارسين العرب العديد من المقابلات المصطلحية بسبب اختلاف الترجمات منها؛ الخطأ المقصود، التجاوز، الإطاحة، المخالفة، الاختلال، خرق السنن وغيرها.

يفهم الانزياح أو الانحراف أو المجاز من سياق الكلام-وهذا أمر مؤكد-، يلجأ إليه المتكلم حين تستدعي الضرورة ذلك، فعندما تكثر أو تتزاحم المعاني في ذهن متكلم ما ويجد أن رصيده من الألفاظ والمعاني لا يلبي حاجته التعبيرية أو التواصلية يلجأ مباشرة إلى الاستعانة به، بغية خلق معاني جديدة يكون إيصال المعاني بها أفضل وأحسن من تلك المتواضع عليها عن عمد وقصد. (نويجم، 2018، ص.44).

يعد المجاز شكلا من الأشكال البلاغية التي تعتبر نوعا من الصيغ التي يبتعد القول فيها بدرجات مختلفة قد تصل حدّ التفاوت في قربها أو بعدها عما يمكن أن تعبر به العبارة البسيطة المباشرة المشهورة، فهو -إذا- يخلق باستمرار معاني جديدة عن طريق تغيير المعنى واستبدال المفردات، فتحل كلمة مكان أخرى لوجود علاقة دلالية تربطها وتوافقها في بعض العناصر المتشابهة فيما بينها، ومثال ذلك كأن يصف شخص فتاة ما بأنها (كنز أو جوهرة)، فالمتلقي سيدرك حتما ودون أدنى تردد أن هذه الفتاة جميلة ومهذبة ورائعة وغيرها من الصفات الجميلة، لأن المتكلم جعل ملفوظ (كنز أو جوهرة) مكان ملفوظ (الفتاة) قصد توسيع المعنى، فلوفرة جمالها ودمائها أخلاقها وروعها لم يجد المتكلم بلاغة في الوصف بذكر هذه الصفات بألفاظها إذ وجده لا يوفي بما يختلجه من شعور وإحساس، ولكن عندما قال (كنز أو جوهرة) عرف المتلقي مقدار الاتساع والانزياح الذي لجأ إليه ليبين مدى إعجابه وانبهاره بالفتاة.

ولأن مدركات الإنسان ومعارفه تتغير وتنمو وتتقدم باستمرار، وكذلك خبرات أناس تتحسن كلما تقدم به الزمن لتعدد عمليات الاتصال وتواليها فإن المفاهيم الأشياء ومدلولات هي الأخرى يحدث معها الأمر نفسه.

وقد نجد أن بعض المفكرين في هذا المجال لا يعتقدون بمشروعية أو حتى بوجود هذا التطور بسبب أنهم لم يدركوا حركية المجازات التي يتم إدراكها بملاحظة التغير، فهم بذلك يتجاهلون أن "ثمة خاصية أخرى للعلامات اللغوية نابعة من خاصيتها السيمانطيقية، وهي قدرتها على التحول على مستوى المدلول

لكي يصبح بدوره علامة من نوع آخر تشير إلى مدلول آخر فيما يعرف بالتحول الدلالي في أنماط المجاز المختلفة" (أبوزيد، 2014، ص.ص. 86-87).

وتأسيسا على ما سبق فإن المجاز هو خروج عن طبيعة الأسلوب وانتهاك المعايير للنسق المثالي المؤلف لدى المتلقين في الأداء العادي إلى مستوى إبداعي يتكئ على اختراق تلك المثالية، بعدول المتكلم عن المعنى الأصلي للفظ ونقله من سياق إلى آخر بهدف التفاؤل أو السخرية أو غير ذلك من الأغراض التي يريدها المتكلم دون التصريح بها، ثم إن المجاز نموذج من نماذج تبدل المعنى وتحول أو تغير الدلالة لأنه استخدام الكلام في غير ما أنتج بسببه؛ وبتعبير أدق إكساب اللفظة أو المفردة أو الجملة معنى جديد بخلاف المعنى الذي كان يحمله بادئا، وقد وصفه الدارسون بانزلاق المعنى.

وبناء على ما سبق نقول إن مفهوم التطور الدلالي يتطابق ومفهوم الانزياح الذي يكون في المعنى وبذلك في الدلالة والكل يتطابق ومفهوم المجاز اللغوي بأنواعه الذي يعني استخدام اللفظ في غير ما وضع له، وهذا كله اتساع في الكلام.

وقد تنبه عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة 471هـ) لهذه القضية في تأملاته النظرية للغة وأساليب التعبير، يتوقف طويلا لدى القول الشهير (كثير الرماد) في التنبيه إلى أن اللغة من حيث هي ذات دلالة معجمية عامة وهي دلالة مشتركة، قاصرة بحكم ذلك، ودلالة استعمالية خاصة بفضلها خرجت اللغة من الحقيقة إلى المجاز ومن المؤلف إلى المنزاح، فلفظ (الرماد) إنما يدل في الأصل على مخلفات الاحتراق، فإذا قلنا (يوجد رماد كثير) فليس يعني ذلك إلا أن عملية الاحتراق أتت على قدر من الحطب، وإذا قلنا (فلان كثير الرماد) فمن الوجهة المعجمية الخالصة المعنى أن ذلك الفلان يملك رمادا كثيرا، لكن الحقيقة ليست تلك، وإنما علاقة دلالية بحكم تقويم هذا التعبير المسلوب في الثقافة العربية، يدل على أن فلانا كريما، معطاء، لأن ناره ما تزال تتأجج لتنضج الطعام الذي يقدم للضيف فلذلك كثر الرماد " وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة. وهكذا السبيل في كل ما كان كناية" (الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المحقق: ياسين الأيوبي الناشر: المكتبة العصرية-الدار النموذجية بيروت، لبنان، (د.ت) ص. 357).

وعلى هذا فقد اهتدى علماء اللغة إلى وجود نوعين من المعنى للكلمة الواحدة وهما؛ المعنى المنطقي والمعنى النفسي، فالمعنى الأول هو المعنى الذي نجده في المعاجم وفي القواميس، وبالتأكيد فإن فهمه يكون مشتركا بين جميع الناس، في حين أن المعنى الثاني فهو المعنى الجديد أو المستحدث أو المتطور أو المنزاح الذي يشحن المتكلم به الكلمة أو العبارة نفسها، بتأثير من العديد من السياقات والظروف التي تحيط به أو تؤثر فيه، ويكاد أن يكون معنى مختلفا من متكلم إلى آخر بسبب اختلاف التصورات الذهنية حول المعاني التي تؤديها ألفاظ اللغة من شخص لآخر، وربما نتج عن هذا أن فهم الكلمة الواحدة أو العبارة الواحدة مصبوغ بالعديد من الإحياءات التي تضيف إليها معاني على معناها الأصلي.

فالمجاز هو انزياح يؤدي إلى تطور الدلالة؛ لأن التغير الدلالي كما هو معروف ظاهرة طبيعية في كل اللغات البشرية، وقد حاول العلماء ومنذ القدم رصد هذه الظاهرة بوعي فاكتشفوا أن العلامة اللغوية تنتقل أو بتعبير أدق تتحول من نطاق دلالي إلى نطاق دلالي آخر، وهذا ما درسوه تحت مباحث المجاز، وكما هو معروف فإن دينامية اللغة وحركيتها في كل زمان ومكان قد تؤثر على الدلالة الأساسية للألفاظ

أو العبارات فتفسح المجال لأن تحل مكانها دلالة قد يفرضها السياق أو القيمة التعبيرية أو الأسلوبية، "وبذلك تغدو الكلمة ذات مفهوم أساسي جديد وقد يحدث أن يتزاح هذا المفهوم بدوره ليحل محله مفهوم آخر وهكذا يستمر التطور الدلالي". (منقور، 2001م، ص. 69-70).

ومجمل القول في تقديرنا أن المجاز سبيل من سبل التطور الدلالي، فبالإضافة إلى أنه يجرد اللفظة من مدلولها الأصلي فيزيحه عنها، فإنه بالمقابل يكسبها مدلولاً جديداً لم يكن لها من قبل.

4- اللفظ والمعنى في التراكيب المجازية:

الكلام في تصور عبد القاهر الجرجاني ضربان "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وآخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض" (الجرجاني، د.ت، ص. 231)، والنوع الثاني لا نستطيع فهمه إلا بعد أن نستوعب الأول فهو يحتاج إلى دليل لفهمه، لأن خروج وانزياح عن ظاهر اللفظ، لأن الحقيقة تكون ظاهرة، بينما يكون المجاز مخفي، أو يكون مستورا متواريا خلف الحقيقة.

وحسب رؤية وتصور عبد القاهر الجرجاني فإن الرسالة تأخذ طريقاً متعرجاً متموجاً وعلى المتلقي أن يضبط محتوياتها الدلالية لأن المعنى الأول أو المباشر يتحول إلى دليل للمعنى الثاني المجازي.

فاللغة المنطوقة تنتقل من المادية إلى المعنوية، فالمعاني الأولى التي يحددها الاستعمال اللغوي - المعجم - يكشف أوليتها وهذا هو المعنى الأول الظاهر، أما الثاني، فهو خلافة، إذ يندرج تحت المعنى الظاهر، معان كثيرة أخرى بحسب الأدوات والألفاظ والتراكيب التي يستعملها المتكلم والتي من خلالها يدفع المتلقي إلى التفريق بينهما، فيدرك بذلك طبيعة اللغة وهي مجردة من الظروف والملابسات وما تقتضيه من تغير في مجرى التعبير ولا شك أن اللغة بهذا الاعتبار تختلف في الاستعمال، فالعالم المعني بالحقائق الحريص على إجلائها لا يستعمل إلا الدلالات الأولى أو الدلالات الثانية بعد أن تطورت واستقر بها الاستعمال، فأصبحت حقيقة متعارف عليها في بيئته العلمية، أما الأديب فإنه يعنى بالمعاني الثانية لارتباطها أكثر بالحالات النفسية والاجتماعية، ويرى فيها السبيل الأنسب للتعبير عن ذلك.

وتعطي الأسبقية - كما يبدو - للمعاني التي تأتي الألفاظ تابعة لها في الواقع الكلامي، على النقيض من الألفاظ، ولذلك نجد أن المتكلم غالباً ما يلجأ إلى الاستعانة بالانزياح الدلالي لمعالجة فراغات دلالية لا يوجد في خلد المتكلم ما يتوافق معها في المعجم وهي طريقة من طرق الاحتيال أو التلاعب على اللغة يلجأ إليه المتكلم ليخفي عجزه أولاً وعجز اللغة تالياً، لأن المعنى أكبر من أن يجنح إليه المتلقي من ظاهر لفظه، بل يتركه يتحمل العناء ليبلغه، وحتى يكون له ذلك لا بد له من ترجيح المعاني التي تتصور له، ولن يكون ذلك بالأمر اليسير على حد قول ابن الأثير: "وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد درهما ودينارها، بل المحك الذي يعلم منه مقدار عيارها، ولا يزن به إلا ذو فكرة متقدمة، ولمحة منتقدة، فليس كل من حمل ميزاناً سعي صرافاً" (ابن الأثير، د.ت، ص. 71).

والمقصود هنا الترجيح بين المعاني سواء بين الحقيقة والمجاز أو بين الحقيقتين أو بين المجازين وهو ليس في تناول كل مستمع أو متكلم، بل يدركه من هو أكثر فطنة دهاءً، لذلك قد يقف القارئ أو

السامع في كثير من الأحيان أمام نص مربك دلاليا حائرا في استقراء معناه أو في فهم دلالته، ونجده يتساءل: هل يدرك معناه من ظاهر مفرداته، أو يستعين بظاهرة المجاز أي انزياح الألفاظ عن دلالاتها ليتمكن من استيعاب معناه، لأن إدراك المعنى في بعض النصوص لا يتأتى بسهولة ولا يعطي المتلقي شيئا من دلالته إلا بعد جهد جهيد وتأمل عميق في المعاني الخفية. فعلى الرغم من اعتبارية العلاقة بين اللفظ والمعنى إلا أن الجرجاني يذهب إلى تميز الدلالات نفسها عندما يتناول قضية المعنى ومعنى المعنى في النصوص على هذا الشكل:

دلالة اللفظ (معنى أول) ← المعنى.

دلالة المعنى (معنى ثان) ← معنى المعنى

ومعنى المعنى هو المعنى المجازي الذي يعد ضربا من ضروب النظم وأساس التركيب على رأي الجرجاني؛ لأن هذه المعاني التي حصرها في الاستعارة والكناية والتمثيل وغيرها من أنواع المجاز عدها من مقتضيات وضروريات النظم، ويعتقد أنه عنها يحدث وبها يكون، بسبب أنه لا يمكن أن يدخل شيء منها في الكلم... فلا يتصور أن يكون ها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره، أفلا ترى أنه إن قدر في اشتعل من قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ سورة مريم، الآية 4. أن لا يكون الرأس فاعلا له، ويكون "شيبا" منصوبا عنه في التميز، لم يتصور أن يكون مستعارا" (الجرجاني، (د.ت. ص. 324).

ولا شك أن النظم الصحيح المتقن هو الذي يبرز المعنى ويجليه للقارئ سواء أكانت ألفاظه على وجه الحقيقة أم كانت صورا مجازية تتمظهر فيها محمولاتها من المعاني بصور مغايرة ومختلفة مع علاقة أكيدة بين المعنيين المنتقل بينهما، هذه العلاقة التي تحمل أبعادا ثلاث: أولهما موضعي حين يتطلب من المبدع الدقة والمهارة في تمثيل الأشياء والربط بينها، وثانيها معنوي تعكس علاقة المبدع بالصورة ودرجة إيقاعها في نفسه، وآخرها فني وذلك حين تكشف الصورة عن موقفه بتأثيرها في المتلقين.

وإذا كان المجاز في العموم كلام ولا شك أن الكلام نظم كما يصفه الجرجاني، والنظم صناعة والصناعة لا تكون إلا بأداة، فالأداة ها هنا هي شكل الكلام ومضمونه أي ألفاظه ومعانيه مجتمعين، فبواسطة هذه الأداة تتشكل الرسالة أو بالأحرى يكون انتاج الرسالة التي هي في الأساس معاني قائمة ومُتصوّرة في ذهن الباث فيوصلها لمتلقيه عن طريق الملفوظات. والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هنا: هل يمكن أن يطابق اللفظ المعنى في لغة المجاز؟

إن المطابقة بين اللفظ والمعنى من الدراسات التي شغلت بال الجاحظ ومعاصريه قبل الجرجاني وغيره، والتي كانت تكمن عنده في تلخيص المعاني وتخفيف الألفاظ إذ يقول: "ويقولون أصاب الهدف، إذ أصاب الحق في الجملة... ومن ذلك قولهم فلان يقلّ الحزّ، ويصيب المفضل" (الجاحظ، 1423هـ، ص. 107).

قد يرى المتصفح لكتاب البيان والتبيين أن الجاحظ لم يشرو لو مرة واحدة لمصطلح المجاز بالمعنى الذي أثار الجدل لدى باحثي اللغة وعلماء الفقه والتفسير ولدى الفلاسفة؛ بل استعمل ألفاظا أخرى بديلة كالتأويل، والاشتقاق، والمثل، والتوسيع، والتشبيه، وهذه المصطلحات كما هو معروف تناولها علماء البلاغة بعده بإسهاب وتحت أبواب أو فروع علمية أخرى، بل لقد ربطه ربطا وثيقا بقضيتي التفسير والقصص.

رأى الجاحظ من خلال هذه الظروف والاعتبارات أن المجاز قضية كلامية بالدرجة الأولى، ولنا أن نستعرض بأي كيفية عبر عنه، ولأن المجاز تلميح إلى المعنى وليس تصريحاً به، وبالألفاظ المتعارف عليها، ويشار إليه إشارة، غير أن المجاز في معتقد الجاحظ هو الخروج والابتعاد عن المعنى الأصلي، بمعنى أن الجاحظ في هذا المجال كان ضد قاعدة التطابق بين اللفظ والمعنى، وقد توسع الجاحظ في موضوع الكلام كثيراً ورأى أن المتكلم أحياناً يعطي للمعاني أو يلبس معانيه ما لا تستحقه من ألفاظ، وعليه فقد وجده بعض معاصريه وممن جاءوا بعده أنه فهم المجاز على أساس أنه تجاوز لمقدار الكلام، أو تحويل للمعاني عن مقادير صورها، ويصف الجاحظ المجاز بالرياء ويظهر ذلك جلياً في قوله: "وفرت بين الحقيقة والرياء" (الجاحظ، 1419هـ، ص. 19)، ويقصد هنا المجاز، ويرى أنه تمويه للمعاني وإخراجها عن حقائق أقدارها، وهو في نظر الجاحظ نوع من إضمار الباطل والتظاهر بالحق بالتوسع في الكلام.

ومن ثم كان المجاز الذي يعده بعضهم عنواناً على الحذف والذكاء دليلاً في الحقيقة على العجز الطبيعي في الإنسان "وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء على اتساع المعاني" (الجاحظ، 1423هـ، ص. 133). ويؤدي التشديد بالجاحظ إلى غلق باب المجاز فيوصي المتكلم بالتمسك بالحقيقة والواقع وأن لا يتورط في تحميل الألفاظ ما لا طاقة لها به فلا ينبغي للعاقل أن يشحن اللغات ما ليس في طاقتها كما يعتقد، ويؤكد على أن البيان في غنى عن التأويل، وهذا التوجه نجده تقريباً لدى ابن الأثير إذ يرى أن الكلام ربما يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز مهما اختلف اللفظ، وهو يؤكد على أنه إذا لم تكن بنا حاجة إلى حمله على طريق المجاز فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة لأنها أصل، والمجاز فرع، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة (ابن الأثير، د.ت.)، ص. 89). لكن هذا الموقف سواء من الجاحظ أو من ابن الأثير لم يمنعهما من اعتبار المجاز ظاهرة لسانية واردة في القرآن الكريم وفي سنة الرسول وكلام العرب، وعلى المتلقي أن يدرك أي المعنيين يقصد المتكلم وذلك بنباهته وذكائه وكذلك باعتماده على قراءة السياق والمقام والظروف المنتجة للخطاب المجازي، لأن المعنى الحقيقي هو المعنى الأصلي الموجود في المعاجم ولا يختلف اثنان على إدراكه وفهمه فهو ظاهرة مشتركة بين كل الناس، في حين أن المعنى المجازي هو معنى جديد يُحْمَلُ منشئه للفظ أو العبارة نفسها ويتحكم في إنتاجه تكوين باث الرسالة وظروفه المؤثرة في إنتاجها، وبالتأكيد فهو مختلف من متكلم إلى آخر.

يقسم الدارسون لغة المجاز إلى فرعين؛ فرع يكون فيه المتكلم غير ملزم بالمطابقة بين المعنى والمبنى في لغة المجاز، والأصل أن يطلق لفظاً ويريد معنى أوسع منه، لأن المجاز هو عملية إنتاج لفظية لا يشترط فيها توازن بين اللفظ والمعنى، إنما نجد أن هذا النوع من الاستعمال اللغوي يغلب عليه الاختصار في الملفوظات والتوسيع في المعاني، أما الفرع الثاني فهي مطابقة يكون اللفظ فيها متحداً مع المعنى كلياً، فيجعل اللفظ حاملاً لمعنى واحد لا غير ويعبر عنها بالمشكلة بالمطابقة الأولى تعبر عن المجاز أما الثانية فتعبر عن الكلام على وجه الحقيقة.

والمطابقة الأولى واردة لأن ألفاظ اللغة متناهية محدودة والمعاني بعكس ذلك أي واسعة، ومن غير مقدور أي لغة أن تقدم لفظاً منفصلاً لكل معنى يرد على الذهن، لذا لا بدّ من التوسع في استخدام اللفظ بأن يجوز به معناه الحقيقي لنستعمله في معنى آخر تطبيقاً لفكرة الاقتصاد اللغوي مع مراعاة

القرينة التي تجمع بين المعنيين الأول والثاني، ونجد الجاحظ يؤكد على أنه "ينبغي للمتكلم أن يدرك أقدار المعاني، ثم يوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما" (الجاحظ، 1423هـ، ص. 131). ليسهل عليه تقسيم قيمة الكلام على قيمة المعاني، ويقسم قيمة المعاني على المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات أو المقامات.

انطلاقا مما سبق وحتى تكون للمتكلم القدرة على فعل ذلك لا بد أن يكون عالما بالألفاظ حاذقا في اختيار اللائق منها بالحالة أو المعنى المناسب دون أن يخترع ألفاظا أو معان من عنده، ومن جهة مقابلة لا يمكن اعتبار المعاني المستعارة أو المجازية اختراعا وبدعة؛ وإنما يمكن أن نعتبرها نوعا من التأويل ومخالفة في أوضاع الألفاظ والمعاني عن وعي وقصد بغرض التأثير في السامع وإمتاعه فالمعنى إذا أتنا مجازيا ففي الغالب نفهمه بعد أن نبذل جهدا جهيدا في طلبه بالفكرة، وأعمال العقل وتحريك الخاطر، وما كان أكثر مجازية كان فهمه أصعب امتناعه على المتلقي أكثر، كما أن النفس البشرية تتوق وتتشوق "الرؤية ما هو محتجب وكشف ما هو مستتر، لا سيما إذا كان للنفس القدرة على إزالة الحجاب وكشف الغطاء" (المبارك، 1999م، ص. 37).

مما سبق نصل إلى مجموعة استنتاجات منها:

- إن المعنى في المجاز لا يأتي سهلا ظاهرا بل مغلقا خفيا.

- إن اللفظ يحمل (معنى المعنى) فهو يحمل مدلولاً يتحول إلى دال ليفي بغرض التجوز.

- وأن المجاز هو تجاوز للمقدار وتحويل للمعاني وتوسيع في الكلام، لأن اللفظة الواحدة تحمل معنيين أولهما منطقي معجمي والثاني استعماله نفسي.

5-الخاتمة:

يتضح من خلال استعراض أبعاد المجاز اللغوي أنه ليس مجرد انزياح عن المعنى الأصلي، لا مجرد تحايل بلاغي على اللغة، بل هو ظاهرة دلالية معقدة تعكس ديناميكية اللغة وقدرتها على التكيف مع حاجات التعبير والتفكير الإنساني فهو يقف عند مفترق دقيق بين الانزياح والتطور.

فإن كان تطور الدلالة بشكل عام يشير إلى التحول التدريجي الذي يطرأ على معنى الكلمة أو التعبير عبر توالي الأزمنة بتأثير العوامل الثقافية والاجتماعية أو حتى السلوكية والاستعمالية أين يكون هذا التطور اتساعا أو تضيقا أو انتقالا من معنى إلى آخر، فإن الانزياح الدلالي هو استعمال مقصود للكلمة في غير معناها الأصلي غالبا ما يكون لغرض تحقيق أثر فني أو بلاغي كما هو الحال في المجاز والاستعارة، وهو غالبا ما يكون مؤقتا وعارضا يرتبط بقصد المتكلم وجمالية التعبير (بولخصايم، 2024، ص. 623).

والمجاز وإن بدا في ظاهره انزياحا عن المعنى الحرفي، إلا أنه في جوهره تعبير عن تحول أو تقدّم في الوعي اللغوي، إذ يتيح دلالات جديدة تتجاوز القوالب الثابتة، وتساهم في تجديد البنية المعجمية والبلاغية للغة.

لأن كلا من التطور الدلالي والانزياح الدلالي مرتبطان ارتباط وثيقا في بنية المجاز، حيث يعد الانزياح الدلالي فاعلة تفتح المجال أمام التطور الدلالي عبر الاستعمال، فالمجاز يقوم على أساسا على انزياح دلالي تستعمل فيه الكلمة لغير معناها الأصلي لعلاقة مشابهة أو مجاورة، ما يولد معاني جديدة تتجاوز حدود المعجم، ومع تكرار هذه الانزياحات في السياقات التواصلية المتعددة، قد يكتسب المعنى المجازي شرعية استعماله ويصبح جزء من الدلالة القاموسية للكلمة فيتحول بذلك إلى تطور دلالي، ومن ثم، يمكننا القول أن المجاز يمثل جسرا بين الانزياح اللحظي والتطور التاريخي.

وعليه فالمجاز لا يمكن اختزاله في كونه انزياحا سلبيا عن الأصل، بل هو تطور دلالي وظيفي، يحفز اللغة على النمو، ومواكبة التحولات الفكرية والثقافية عبر الزمن، إنه دليل على حيوية اللغة وانفتاحها على التأويل والابتكار أكثر من كونه مجرد خرق لثبات الدلالة.

بين هذين المنظورين يتأكد أن المجاز ليس ظاهرة لغوية جامدة بل هو نتيجة تفاعل معقد بين الحاجة البلاغية والوظيفة التواصلية، والبنية الذهنية للمتكلم، لدى فإن تصنيفه بشكل قاطع كـ(انزياح) أو (تطور) قد يضيق أفق فهمه، الأفضل أن ننظر إليه كأداة لغوية مفتوحة على احتمالات التأويل والتجديد، تتجاوز الحدود التقليدية للدلالة دون أن تفك النظام اللغوي، بل تعيد تشكيله بطرائق أعمق وأكثر إبداعا.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أنيس، (1972)، دلالة الألفاظ، ط.3. مصر، مكتبة الأنجلو المصرية.
2. ابن الأثير، (1939م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، ج.2. مطبعة البابي الحلبي وأولاده،
3. بن ستالة عبد القادر، (ديسمبر 2022)، الانزياح الدلالي في النص القرآني ووظائفه الحجاجية، مجلة الباحث، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، مجلد 14، العدد 04.
4. سليمان عشاري، (2003)، الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي في الجزائر، مدرسة السيمونتيك القول والفعل والحال، وهران، الجزائر، دار الغرب.
5. ضياء الدين بن الأثير، (د.ت)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الفجالة. القاهرة ج.1. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
6. طارق بولخصايم، (أكتوبر 2024)، أسلوبية الانزياح في المجاز اللغوي -دراسة بلاغية في القرآن الكريم، مجلة الإحياء، جامعة باتنة، الجزائر، مج. 20، عدد 24.
7. عبد الجليل منقور، (2001م)، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
8. عبد القاهر الجرجاني، (د.ت)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المحقق: ياسين الأيوبي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، الناشر: المكتبة العصرية-الدار النموذجية.
9. عمرو بن بحر الجاحظ، (1419 هـ)، البخلاء، بيروت، ط.2، دار ومكتبة الهلال،
10. عمرو بن بحر الجاحظ، (1423 هـ)، البيان والتبيين، بيروت، ج.1، دار ومكتبة الهلال.

11. فريد عوض، (1999م)، علم الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض، القاهرة، ط2، مكتبة النهضة المصرية.
12. محمد المبارك، (1999م)، استقبال النص عند العرب، الأردن، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
13. محمد بن مكرم ابن منظور، (1414 هـ)، لسان العرب، بيروت، ط3، ج3. دار صادر.
14. مسعود نويجم، (مارس 2018)، ظاهرة الانزياح في التراث العربي، مجلة التنوير للدراسات الأدبية والانسانية، جامعة باتنة، الجزائر، العدد 5.
15. نصر حامد أبوزيد، 2014 إشكالية القراءة وآليات التأويل، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1، المركز الثقافي العربي.